Challenges of Higher Education in Palestine – a Personal Experience
2022 Commencement Address
Hanna Nasir
June 9, 2022

تحديات التعليم العالي في فلسطين– تجربة شخصية
كلمة حفل التخرّج 2022
حنا ناصر
9 حزيران 2022

يسرني أن أتحدث إليكم عن تجربة شخصية متعلقة بتحديات التعليم العالي في فلسطين – وهي تجربة مستلهمة في العديد من محطاتها مما اختبرته خلال سنوات دراستي في الجامعة الأمريكية في بيروت.
لقد بدأ اهتمامي الأولي بالتعليم بشكل عام من أسرتي التي كانت مؤمنة بشكل قاطع، أن التعليم هو من أهم ركائز النهوض بأي مجتمع. وكانت عمتي نبيهة ناصر هي التي أسست مدرسة بيرزيت عام 1924 والتي أصبحت فيما بعد تسمى كلية بيرزيت. وما أذكره – وأنا تلميذ في المدرسة - هو الاهتمام بالثقافة العامة وبالصالح العام والوطنية الواعية.
زاد اهتمامي وتأثري بهذه المثل لدى دراستي للبكالوريوس والماجستير في الجامعة الأمريكية في بيروت في منتصف الخمسينيات وأوائل الستينيات من القرن الماضي. وكان للمحاضرات العامة التي كان يلقيها أشخاص أمثال الدكتور قسطنطين زريق أثراً بالغاً علي وعلى نمط تفكيري. كما أذكر بفخر كبير الدكتورة سلوى نصار والتي كانت ملهمة لي ولغيري من طلبة الفيزياء. وللعلم كانت الدكتورة نصار قد درَّست في بيرزيت عام 1938 قبل أن تكمل دراستها العليا وتصبح من أعلام الفيزياء في العالم.
أكملت دراستي العليا في الولايات المتحدة وحصلت على شهادة الدكتوراه في الفيزياء في حزيران عام 1967– أي في الوقت الذي تم فيه احتلال الضفة الغربية وقطاع غزة. نعم حققت طموحي العلمي ولكن حلمي في الاستمرار في المجالات البحثية في الفيزياء انحرف باتجاه آخر وأصبح همي الأساسي هو العودة إلى الوطن. وكنت مقتنعا في حينه أن على كل فرد خارج الوطن أن يعود إليه، إن كان بوسعه، ليتحمل مسؤوليته الوطنية.
عدت إلى فلسطين بسرعة ووجدت الاحتلال ينخر في كل شبر من أراضينا – له اليد الطولى والوحيدة في التعليم وفي الصحة وفي كل منحى من حياتنا.
في تلك الأجواء بدأت العمل مرة أخرى في كلية بيرزيت (وكنت قد عملت فيها بعد حصولي على شهادة البكالوريوس من الجامعة الأمريكية في بيروت في العام 1955). وكانت في حينها قد تطورت إلى كلية جامعية متوسطة تقدم تعليما على مستوى السنتين الأولى والثانية الجامعيتين، وكان هذا أقصى ما يمكن للطلبة الوصول إليه في التعليم العالي في فلسطين في ذلك الوقت.
تصدينا بجرأة في كلية بيرزيت لسد هذا الفراغ التربوي. كنا ثلاثة نعمل في الإدارة: جابي برامكي ورمزي ريحان –وأنا. وكلنا خريجون من الجامعة الأمريكية في بيروت. وأخذنا قرارا بتطوير كلية بيرزيت إلى جامعة. إن إنشاء جامعة في الأيام العادية صعب للغاية. فكيف لنا أن ننشئ جامعة تحت الاحتلال! ربما بسبب صغر سننا نسبيا في ذلك الوقت قررنا المغامرة وأخذ القرار التربوي والوطني والمصيري، وتم الإعلان في حفل التخرج في حزيران 1974 أن كلية بيرزيت ستصبح جامعة فورا.
واجهتنا معارضة شديدة من سلطات الاحتلال. كيف يمكن أن نعلن عن ذلك التطوير دون تنسيق مسبق معهم. لم نرغب قطعيا بذلك. فالتنسيق يعني الخضوع إلى ضوابط لا يمكن القبول بها. وكما كان الاحتلال يضعنا أمام أمر واقع في الكثير من إجراءاته التعسفية، رغبنا أن نضعه نحن تحت أمر واقع فيما يتعلق بالتعليم العالي. لم نكن أبطالا ولكننا كنا مؤمنين بالأهمية الكبرى لاستقلالية التعليم العالي كما كنا مؤمنين بأهمية بقاء الطلبة في فلسطين كشريحة متعلمة وواعية تنهض بالوطن ولا ترضخ للتهديد بالهجرة عن ربوعه. وأرسينا جامعة بيرزيت على أسس أكاديمية عالية ضمن مفاهيم الديمقراطية والانفتاح وحرية الرأي والرأي الآخر.
دفعت الجامعة ثمنا غاليا لهذا القرار التربوي المسؤول: أبعدت شخصيا عن البلاد إلى جنوب لبنان في تشرين الثاني من العام 1974، وعانت الجامعة العديد من الإغلاقات والمداهمات والاعتقالات بين صفوف الطلبة والأساتذة. وفي السنوات الأولى كانت أيام الإغلاقات تكاد تكون أكثر من أيام الدوام. وفتحنا مجابهة إعلامية مضادة ضد الاحتلال في اليونسكو والمحافل الدولية. ونجحنا إلى حد كبير. وتمت إدانة إسرائيل في تلك المحافل. وأدركنا أن الإدانة وحدها ليست كافية ولكنها ساعدتنا في ذلك الوقت على تخطي العديد من الصعوبات وإجراءات سلطات الاحتلال التعسفية.
بذلت الجامعة منذ نشأتها جهودا حثيثة للنهوض بالمستويات الأكاديمية. ولكن التحدي الأكبر في تلك الفترة كان سد الفراغ التنموي في بلد تحت الاحتلال. وفي غياب حكومة وطنية أخذنا على عاتقنا إنشاء مراكز ومعاهد بحثية ومجتمعية توفر خدمات ضرورية للمجتمع في الصحة والبيئة ومحو الأمية وما شابه.

لقد ساهمت مبادرة كلية بيرزيت للتطور إلى جامعة في تحفيز مؤسسات تربوية محلية أخرى لتقوم بذلك أيضا. وهكذا أصبح في فلسطين عدة جامعات في مناطق مختلفة توفر معظم التخصصات للطلبة. وبهذا نجحنا سويا في المحافظة على صمود الشعب الفلسطيني على أرضه وترابه.

خلال فترة إبعادي القسرية عن بيرزيت، بقيت على تواصل وصلة وثيقة بجامعة بيرزيت، وقمت بجميع الأعمال الإدارية المطلوبة من رئيس الجامعة عن بعد. وكان هذا في صلب شعورنا بتحدي الاحتلال وعدم الخضوع لأساليبه القمعية.

بقيت في المنفى حتى عام 1993 وعدت إلى الوطن مع العديد من الفلسطينيين إثر الاتفاقات المبرمة في ذلك الوقت بين منظمة التحرير وإسرائيل. قبلت الأرض التي عدت إليها بعد 19 عاما من الإبعاد. بكيت فرحا لعودتي لفلسطين وبكيت حزنا لأن الوطن ما زال تحت الاحتلال!

عدت إلى موقعي في بيرزيت كرئيس للجامعة. وتبين لي أن الاحتلال ما زال يجد في التعليم الجامعي تهديدا كبيرا عليه. فالمداهمات مستمرة لحرم الجامعة والاعتقالات مستمرة للطلبة والأساتذة -وكأن شيئا ما لم يتغير! بل ربما ازداد سوءا.

وبالرغم من ذلك كله، كثفت الجامعة جهودها في عقد المؤتمرات الدولية. ودعونا شخصيات أكاديمية بارزة مثل إدوارد سعيد وإبراهيم أبو لغد وهشام شرابي للمشاركة في تلك المؤتمرات. ولم نكتف بالنخبة الفلسطينية ولكن زار الجامعة مثقفون من كل حدب وصوب يلتقون مع الطلبة ومع الأساتذة في جو تفاعلي وديمقراطي – داخل أسوار الجامعة. فكانت بالفعل تجربة ثرية من نوعها لمجتمع تحت الاحتلال.

نعم نجحنا في إرساء قواعد هامة للتعليم العالي. ونجحت مؤسسات التعليم العالي الفلسطينية في صمود الأجيال الشابة، وفي توفير قيادات سياسية ومجتمعية من خريجيها ترفد مؤسسات الوطن. وبالرغم من ذلك، ما زالت فلسطين تئن اليوم تحت وطأة احتلال غاشم. ولكن يوجد في فلسطين رصيد من النساء والرجال والشابات والشباب مؤمن بحتمية إنهاء الاحتلال. ولذا، علينا أن نبقي الأمل والعمل متلاصقين ورديفين من أجل تحرير الوطن ورفع راية الاستقلال.

أقول كل هذا وقلبي اليوم مفعم بمشاعر الفرح لكوني معكم في هذا اليوم البهيج في بيروت الغالية. فبيروت جزء لا يتجزأ من ذاكرتي وتجربتي العلمية والحياتية. وإذ أهنئكم وأهنئ ذويكم أيها الخريجون، فإنني أتمنى لكم النجاح في حياتكم المستقبلية كما أتمنى أن تبقى الجامعة الأمريكية في بيروت مصدر إلهام لكم كما كانت لي على مر السنوات.